ندرة البطـــولة

للأستاذ أحمد أمين

كتب الكاتب القدير الأستاذ عباس محمود العقاد مقالا رد فيه على مقالتي في « ندرة البطولة » ؛ وأنا سعيد حقاً بهذا الرد الممتع ، فقد أبان فيه جانباً من جوانب الموضوع ، وأوضحه أيما إيضاح ، ودعمه بالحجج والبراهين القوية

وحبذا لو اتخذ هذا المقال مثلا للناقدين ، فيناقشون مايعرض من الأفكار في هدوء وجد وتفكير عميق وأسلوب مهذب ، ولا يكون لهم غرض إلا الوصول إلى الحق وتجليته

ثم نعود بعد إلى موضوعنا ، فيخيل إلى أن ليس بيني وبين الأستاذ العقاد خلاف إلا في مسألة واحدة متى حددت ظهر وجه الصواب وانكشف جانب الحق

تلك هي تحديد ما نريد بالنابغة أو البطل ، وما نريد بالمقارنة بين العصر الماضي والعصر الحاضر .

مقياس النابغة في نظري أن يفوق أهل زمانه ويسبقهم في فنه أو علمه أو أدبه حتى لا يدركوه إلا بعد أزمان ؛ وعلى مقدار هذا السبق يكون النبوغ . فسيبويه نابغة في النحو لأنه رأى من قواعده ما عجز أهل زمانه عن النظر إليه ، وفاقهم في ذلك بمراحل ؛ وإسحق الموصلي نابغة لأنه ابتدع من الفن مالم يعرفه فنانو عصره ، وكان في ذلك هو السباق وهم المقلدون . وقل مثل ذلك في الجاحظ وابن الرومي وشكسبير وجوته . فأما إن هو عرف ما يعرفه أهل زمانه ، أو أتى من الفن بما يأتيه أهل زمانه ، فلسنا نسميه نابغة وإنما نسميه عالما أو فناناً

هذه مسألة ، والمسألة الأخرى أننا إذا أردنا أن نقارن عصراً بعصر في كثرة النبوغ وندرته ، فلا نقارن معلومات عصر بمعلومات عصر ، ولا فن عصر بفن عصر ، إنما نقارن مسافة البعد بين النابغين في عصر وبين عامة المتعلمين فيه ؛ ونفعل مثل ذلك في العصر الذي نريد أن نقارنه به . فاذا أردنا المقارنة بين العصر العباسي الأول ـ مثلا ـ وبين عصرنا الحاضر في الأدب ، وازنا بين ابن المقفع والجاحظ وبشار وأبي نواس ، وبين الكتاب العاديين والشعراء العاديين في ذلك العصر ، وقسنا مسافة البعد بينهم ؛ ثم فعلنا مثل ذلك في عصرنا الحاضر ، فان كانت مسافة البعد بين البارزين والعاديين في العصر العباسي أطول منها بين البارزين والعاديين في عصرنا حكمنا بأن البارزين في العصر العباسي أنبغ

هذا في رأيي أعدل في الحكم ، وأقرب إلى الصواب ؛ وإلا لم يعد أي نابغة من نوابغ العصر الماضي نابغة ؛ فتلميذ المدارس الثانوية اليوم يعرف من قواعد النحو مالم يكن يعرفه سيبويه ، ويعرف من الطبيعة مالم يكن يعرفه « نيوتن » ؛ وتلميذ الهندسة اليوم يعرف من نظريات الهندسة ما لم يكن يعرفه إقليدس ، ويعرف من الهندسة التحليلية ما لم يكن يعرفه ديكارت ؛ وقد يكون من كتابنا اليوم من يجيد الكتابة خيرا من ابن المقفع والجاحظ ، ولكن قيمة سيبويه ونيوتن وإقليدس وديكارت وابن المقفع والجاحظ ليست في مقارنتهم بأمثالهم في عصرنا ، ولكن بمجموعة المتعلمين في عصرهم ، ثم بموازنة ذلك في عصرنا على هذا النمط وهذا المنهج . فنقطة المقارنة هي مسافة البعد ، لا مجموعة المعارف ولا المقدرة الفنية أو السياسية أو الحربية . هذه هي نظريتي ، فأنا أدعي أن العصر الحاضر تندر فيه البطولة ويقل فيه النبوغ بهذا المعنى

فلا يسألني الأستاذ بعد ذلك ، ما كتاب الجاحظ الذي يعجز أبناء عصرنا عن الاتيان بمثله ؟ ،

ولا يقل : « إن الموصلي وابراهيم بن المهدي لا يبلغان شأو سلامة حجازي والسيد درويش وأم كلثوم » ،

ولا يذكر أن فوش وهندنبرج ومصطفى كمال أتوا من الوقائع ما يفوق ما أتى به يوليوس قيصر واسكندر المقدوني وجنكيزخان ... الخ

فكل الذي ذكره الأستاذ حق ، ولكنه لا ينقض ما ادعيت . قد كان ينقضه لو أنني ادعيت أن النبوغ هو إتيان الآخر بخير مما أتى به الأول ؛ ولو ادعيت ذلك لكانت دعوى ظاهرة البطلان ، ولكان ابني في المدارس الثانوية خيراً من رياضي القرون الوسطى ، فهو يعرف مالم يعرفوا ، وأنبغ من كل علماء البلاغة في العصر العباسي الأول لأنه يعرف من مصطلحات

البلاغة مالم يعرفوا ؛ وهكذا فى كل علم وكل فن

أخشى أن أكون فى مقالى السابق لم أوضح القصد ، ولم أجلّ الغرض ؛ أما الآن فأظن أن الأستاذ يوافقنى بعد هذا التحديد على نظريتى ؛ فعندنا كتاب قديرون يفوقون الجاحظ فى كتابتهم وفى تأليفهم ، ولكنهم مع ذلك لم ينبغوا نبوغ الجاحظ ، فقد كان بصيراً بين عميان ، وصاحيا بين سكارى ، وفى القمة ومن حوله فى القاع ؛ ولكن كتابنا إن فاق منهم عدد قليل فحولهم كثير مقاربون ؛ وإن نبغ فى عصرنا قانونى فليس هو فى السماء ومن عداه فى الأرض كما كان الشأن فى القرون الماضية ، ولكنك ترى قانونيين مثله أو قريبين منه ومسافة البعد ليست واسعة

والعالم الآن متخم بالعلماء المتبحرين ، والساسة الماهرين ، والفنانين المبدعين ، والحربيين القادرين ، والصناع الحاذقين ، ولكن من العسير جداً أن تعد منهم نوابغ لأن كل طائفة منهم تكاد تكون كأسنان المشط فى الاستواء ، وإن فاق واحد منها فتفوق قليل

ظهر نابليون فاستعبد الناس ، وأجرى الدماء أنهارا ، وقلب الممالك رأسا على عقب ، ودوخ الدنيا ، فكان نابغة حقاً فى ناحية ؛ وبيننا الآن فى عصرنا من هم أعلم منه بفنون الحرب ومن هم أقوى منه إرادة ، وأبعد نظرا ، ولكن من الصعب أن نسميهم نوابغ ، لأن الناس ليسوا مغفلين كما كانوا أيام نابليون ، ولأنه وحده كان هو القاهر المريد ومن حوله كانوا هم المنفذين المأمورين ، فظهر ولم يظهروا ، ونبغ ولم ينبغ بجانبه إلا قليل

لقد أتى عصرنا بالعجائب — كما يقول الاستاذ — « وأتى بالحقائق التى تشبه الخيال ، وبالعبر التى تشبه نوادر الأمثال » ولكن كل ذلك — مع الأسف — لا يسمى نبوغا بالمعنى الذى نقصده ، لأنها قد كثرت حتى صارت مألوفة معتادة . هل اذا كثر الصناع الماهرون فى بلدة سميتهم كلهم نوابغ ؟ أم هل اذا كثر القانونيون البارعون فى فرنسا سميتهم كلهم نوابغ ؟ أو هل إذا كثر الفلاسفة المتعمقون فى المانيا كانوا كلهم نوابغ ؟ كلا ليس هذا هو مصطلحنا فى الحياة ، فالبلدة التى يكثر فيها الجمال يكون الجمال فيها عاديا مألوفا ، والحقل الذى تطول أكثر أشجاره وتنمو نمواً جيدا لا يمكننا أن نسبغ صفة التفوق عليها جميعاً وهكذا

فكثرة العلماء والفنانين فى عصرنا الحاضر حجة لى لا علىّ ، وهى السبب فى أننا لا نعدهم نابغين ولا أبطالا . ولو كان واحد منهم فى الزمن القديم ، وكان وحده هو البارز وهو السائد لكان وحده هو النابغ . فلو كانت المسألة مسألة تقدم عصرنا وتفوقه على الأعصر الماضية فى سياسة جميع العلوم والفنون لوافقتك على ذلك كل الموافقة ، ولكن المسألة هى مسألة النبوغ فى العصر . فلو قارنت مزرعة بمزرعة وكانت كل أشجار إحدى المزرعتين ضعيفة وكل أشجار الأخرى قوية نامية لقلت بلا تحرج وبالبداهة إن المزرعة الثانية خير من الأولى ، وإنها تفوقها بمراحل ؛ ولكن لو سئلت هل فى المزرعة الثانية شجرة متفوقة على أقرانها لقلت بالبداهة أيضا « لا » بملء فى .

فعصرنا كذلك غنى بكل مرافق الحياة ، غنى بالرجال فى كل علم وفن ، ولكن هذا الغنى سلبه النبوغ أيضاً ، فكان عجيباً أن نرى الغنى علة الفقر ، والتخمة سبب الجوع .

لقد انقسم كل مجتمع إلى طوائف ، وكان من نتائج المدنية الحديثة زيادة التخصص ، فكما تخصص الصناع فى جزء خاص من الصناعة تخصص علماء كل علم لفرع منه ، فصار من المضحك أن يكون الرجل قانونيا فى كل فروع القانون ، أو طبيباً فى كل فروع الطب ، أو أديباً فى كل فنون الأدب ؛ ونشأ عن هذا التخصص توفر العدد الكثير على كل فرع من فروع العلم والفن وإتقانهم له ؛ فحيثما تلفت وجدت العدد الذى لا يحصى فى الأمم المتمدنة فى كل نوع وكل فرع وكل صناعة . ونتج من ذلك أن ما كان يسمى نبوغاً فى العصور الماضية أصبح اليوم شيئاً عادياً مألوفاً ، فعز النبوغ وندرت البطولة — ولم نعد نرى أمثال الجاحظ الذى يؤلف فى الأدب والاجتماع والجغرافيا والتاريخ والمذاهب الدينية والطب والنفس والحيوان والاقتصاد ؛ وصار الاقتصار على مادة واحدة بل فرع من مادة بل جزء من فرع هو المنهج العلمى الصحيح ، وهذا أغنى العلم وسهل للعدد الوفير أن يصل إلى شأو بعيد وفى الوقت نفسه كان سبباً لقلة النبوغ ، فالنبوغ يكثر حيث يعز الشبيه

هذا من ناحية العلماء أنفسهم وكثرتهم ، وهناك ناحية أخرى وهى ناحية الناس الذين يحكمون بالنبوغ ، فلا بد للنبوغ من نابغ وحاكم بالنبوغ ، كما لا بد للجميل من ناظر ومنظور . فهؤلاء الناس أصبحوا - على العموم - مثقفين ثقافة عامة خيراً مما كانوا عليه فى العصور الماضية . اتسعت معارفهم ودقت أنظارهم ، وكان لهم أيضا شبه تخصص، فمنهم من يميل الى الأدب، ومنهم من يميل إلى العلم ، ومنهم من يميل إلى الفن ، وأصبح الفرق بينهم وبين العلماء المتخصصين أقل بكثير من الفرق الذى كان بين العامة والعلماء فى العصور الماضية ؛ وكذلك شأنهم فى السياسة ، بل شأنهم فى السياسة خير من شأنهم فى العلم ، كل يعرف حقوقه وواجباته السياسية ، ويستطيع أن يزن قادته وزناً صحيحاً إلى حد ما .

كل هذا أنتج نتيجتين بعيدتى الأثر ، أولاهما أنهم أصبحوا يتطلبون من النابغة مايشبه المستحيل حتى يعد فى نظرهم نابغة ، وقد كان ذلك فيما مضى سهلا يسيرا ، فمن عاش فى الظلماء يبهره نور القنديل ، ومن عاش فى ضوء الكهرباء لا يبهره ضوء الشمس ؛ والثانية أن الناس أصبحوا متساءلين مدققين باحثين لا يستطيع السياسى القدير أن يتلاعب بهم وأن يجعلهم آلة صماء كما كانوا من قبل . من أجل هذا لا نرى كبار الساسة اليوم يستطيعون أن يخضعوا الناس لأمرهم كما فعل نابليون ويوليوس قيصر وجنكيز خان وأمثالهم ، وعدم الخضوع وكثرة البحث والسؤال والتدقيق يقلل من مجد الساسة ، ولا يرفعهم إلى درجة الآلهة وأنصاف الآلهة كما كان الشأن فى سالف الزمان ؛ ومثل هذا يقال فى كل علم وكل فن

فعصرنا الحاضر ، طابعه طابع المألوف والمعتاد لا طابع النابغة والبطل ، وإن كان مألوفنا ومعتادنا أرقى من نابغة القرون الماضية وبطل القرون الماضية

إن كان هذا — يا أخى — هو الذى أردتَ فأظن أنه لا يرد على بمزايا العصر الحاضر ، وعلم العصر الحاضر ، وفن العصر الحاضر ؛ وإذا كان النبوغ فى السبق وكانت المقارنة بين عصرين بقياس مسافتى البعد ، فأرجو أن نكون على وفاق فيما ذكرتَ وذكرتُ ، وسلامى عليك ورحمة الله

أحمد أمين

آ العلم للعلم ، أم العلم للوطن

بوسيلة دراسة التاريخ ؟

للأستاذ أبى خلدون ساطع الحصرى

— ١ —

رغب إلى بعض الشباب أن أدلى برأيى فى موضوع « هل العلم للعلم أم العلم للوطن — بوسيلة دراسة التاريخ » وهو الذى استفتت المفكرين فيه الرابطة العربية ، فكتبت هذا المقال مترخياً فيه بيان الرأى على وجه عام ، غير متصد لمناقشة رأى خاص . وقد رأيت نشره بالرسالة الصديقة ليتسع مدى المناقشة فى هذه المسألة بتنوع المجال

أبو خلدون

أنا لا أعترض على من يقول إن « العلم للعلم » ؛ واسلم بان « الابحاث العلمية » يجب ان تكون غايتها « معرفة الحقيقة » معرفة مجردة عن كل الاعتبارات النفعية .

غير أنى أقول فى الوقت نفسه إن العلم شىء والتعليم شىء آخر ، فما يصح فى « العلم » قد لا يصح فى « التعليم » .

فعند ما نقول « العلم للعلم » ، لا يتحتم علينا — منطقياً — ان نقول فى الوقت نفسه « التعليم للتعليم » . وعندما نسلم بأن « العلم لذاته لا لشىء غيره » لا يلزمنا التسليم فى الوقت نفسه بان « التعليم أيضا لذاته ، لا لشىء غيره » .

فان مبدأ « العلم للعلم » لا يمنعنا من القول بان « التعليم ليس من الأمور المقصودة بالذات ، بل هو من الوسائل التى تستخدم للوصول الى بعض الغايات . »

ان هذه الغايات لا تكون « مادية ونفعية » فى كل الأحيان ، بل تكون « معنوية وتربيوية » فى معظم الأحوال : فقد يقصد من التعليم « إعطاء بعض المعلومات المفيدة للحياة » فى بعض الأحوال ؛ غير أنه يقصد منه — فى كثير من الأحيان — « الحصول على بعض الفوائد المعنوية والتأثيرات التربيوية » ، كالتعويد على البحث والملاحظة ، والترغيب فى الدرس والمطالعة ، أو تنمية الميول الفنية واستثارة العواطف النفسية . . . وأما التعليم الذى يتجرد عن مثل هذه الاهداف والغايات ، فانه يكون مخالفا لأسس التربية الصحيحة مخالفة كلية .